ماتت قريرة العين

قصة بقلم الفتى عمر باشا الادلبي

كانت دارة فخمة تلك التي يقطنها السيد (غوليه) وزوجه، وكانت الحديقة التي تنبسط امامها مترامية الاطراف بعيدة المدى كأنها مزرعة كبرى تمتد حتى الشاطيء الذي تنتهي عنده المدينة البيضاء، مدينة الجزائر. وكان في اقصى هذه الحديقة الواسعة كوخ حقير، ضيق الاطراف، رث المنظر يقطنه الناطور عبد الجبار وزوجه. قد تكاثفت فيه في ذلك الليل الثقيل البطيء سحائب سوداء تراكمت من دخان تبغ رخيص كان يدخنه باستمرار الناطور الجزائري شأنه دائما كلما نزلت به نازلة هم او مصاب كبير. كان الضوء الهزيل الذي ينبعث من قنديل الزيت المعلق على الجدار يلقي على وجه عبد الجبار ظلا باهتا فتبدو سحنته مربدة كثيرة التجاعيد. اما عيناه الكليلتان فكانتا متجهتين الى زاوية الغرفة ترقبان بكثير من الهلع زوجه زينب التي تكومت على نفسها واخفت وجهها في وسادة وراحت تبكي بلا انقطاع. كان صوتها يعلو احيانا حتى يصبح عويلا ثم يعود فيخفت حتى يصبح نشيجا مريرا تقطعه حسرات وزفرات، منذ ساعات وعبد الجبار يجاهد نفسه يتحرى عن كلمة يواسيها بها او يشعرها على الاقل بمشاركته لها في حزنها والمها. ولكنه كان يحس نحوها بخوف شديد، خوف لم يشعر به تجاه اي انسان مدى حياته وقد تجاوز الستين من العمر، ولكن لا بد له ان يقول لها شيئا مهما كان الامر. لقد مضى الليل وزينب المسكينة لم يرقأ لها جفن. وشعر نحوها بحنان عارم لم يشعر لها بمثله منذ تزوجها، وكان ذلك ما يقرب من عشرين عاما، حين كانت فتاة صغيرة لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها طيعة نشيطة رضيت ان تقرن شبابها بكهولته وتقاسمه شظف العيش فتعمل الى جانبه في هذه الحديقة. وقد انصرف عنه اولاده الذين رزقهم من زوجه الاولى التي ماتت من امد بعيد. ولم يبق له من يحنو عليه في شيخوخته المريرة سوى هذه الزوجة الشابة. ومن سوء طالعه ان تتلقى اليوم نبأ موت اخيها الصغير احمد في السجن، حيث كان الفرنسيون قد سجنوه مع من سجنوا من الطلاب عند انبثاق ثورة الجزائر، قال لها بصوت خفيض مرتجف حاول جهده ان يكون رفيقا رحيما:

ـ ارحمي نفسك يا زينب كفاك بكاءا، انا لله وانا اليه راجعون، هذه ارادة الله. لقد قتل من قبل أبوك في الجهاد واخوك الكبير وابن عمك وكثيرون غيرهم من ابناء هذا البلد فلم ارك تبكين كما تبكين اليوم.

وما كادت المرأة تسمع كلامه حتى انتصبت واقفة على قدميها، وكأن نارا قد لذعتها، او كانها كانت تتحفز للكلام وقد واتتها الفرص. فقالت بصوت مبحوح جاف:

ـ ولكن احمد قد مات في السجن!.. اتدري انت يا من تعمل عند الفرنسيين ما معنى مات في السجن ؟؟. يعني مات من التعذيب والتشنيع !! .. ثلاث سنوات كاملات وهذا الفتى الصغير يقاوم قساوة هؤلاء القساة الجناة دون ان يلين لهم. آه لو سمحوا لي ان اراه ولو مرة واحدة وهو في سجنه! ترى اي ميتة اختاروا لك يا اخي الحبيب؟

وتقدمت من عبد الجبار واخذت تهزه بعنف وهي تقول له:

ـ أتحسب انني كنت ارضى ان ابقى الى جانبك اعمل في هذه الحديقة وما يليها من حقول، اخدم الفرنسيين لو لم يعدني (غوليه) ذاك الرجل اللئيم الوضيع الذي تسميه انت بالرجل الطيب ان يسعى لاخراج اخي من السجن ؟. كان الخنزير يقول لي كل يوم: بعد اسبوع سيخرج اخوك من السجن. وكنت اصدق قوله ومضت ثلاث سنوات كاملات، كنت اتعلق خلالها بخيط واه من الامل واخشى دائما ان ينقطع فاسعى جهدي لارضائه وارضاء زوجه العاتية. ولكنه لم يف بماوعد، ويقيني انه لم يفعل من اجل اخي شيئا. وكان باستطاعته ان يفعل كل شيء. كان اللئيم يضحك علي. رحمة الله عليك يا ابي !! كنت اعرف بهؤلاء الفرنسيين الخائنين منا جميعا. كنت تقول لي دائما: تعالي معنا. دعي احمد لرحمة الله ولا تهدري كرامتك، فاذا كان له عمر سيخرج من السجن عندما يخرج الفرنسيون من الجزائر. فلم اطاوعه ورضيت بالذل والعار، رضيت ان ابقى هنا من اجل اخي احمد. اما الان وقد مات احمد فانا حرة طليقة من كل ما قيدت به نفسي. سنحارب مع من يحاربون فاما ننتصر واما نموت كما مات غيرنا. أستطيع ان افعل كل شيء مهما كان صعبا ولكني لا استطيع ان ارى فرنسيا واحدا يدب على ارض الجزائر، كفاني كبتا وحصرا وتمويها. يا الهي كيف استطعت ان اصبر الى الان ؟!!

ابق انت هنا ان شئت. اخدم سيدك الرجل الطيب كما تسميه، لقد خدمته عشرين عاما وكان من جراء ذلك ان وقعت مرة من اعلى شجرة ارغمك هو على الصعود الى قمتها لتشذب أغصانها فوقعت وتهشمت يدك وقطعت فاصبحت عاجزا لا تصلح الا ناطورا ككلب عجوز. وماذا جنينا بعد هذا كله ؟ غير هذه الاسمال البالية التي تغطيني وتغطيك، وهذا الكوخ الحقير الذي نأوي اليه، ان كوخ الكلاب خير منه، وزريبة الدواب اصلح من سكننا. ورغم كل ذلك ما زلت تصدق ان (غوليه) يعطف على قضية الجزائر، وما زلت تسميه بالرجل الطيب !! وتقول عنه انه غير راض عن تصرفات ابناء قومه. ما اغباك !.. اذا كان هذا صحيحا فلماذا ما برح كل يوم يتدرب هو وزوجه

على اطلاق النار واصابة الهدف ؟ اليس من اجل قتالنا ؟. قم معي وتعال انظر من الكوة الصغيرة التي تظل على القبو لاريك كيف تكدست فيه صناديق الذخائر والمتفجرات . ستقول كما قلت مرارا انك رجل عاجز لا تصلح للدفاع ، وانك اذا التحقت بالثورة ستكون عالة على الاخرين . اما انا فلست مثلك . انني قوية واستطيع ان احتمل كل شيء.

وانحنت على الارض ورفعت صرة كبيرة القتها على ظهرها كانت قد جمعت فيها كل اشيائها وفتحت الباب وسارت مهرولة في طريقها دون ان تلتفت اليه. وظل هو في مكانه مسمرا لا يتحرك وقد تهدل راسه على صدره بذل وانكسار . كان الذهول قد تملكه عندما رأى أمراته التي عهدها مسكينة ضعيفة تنقلب ثائرة قوية لا يخيفها شيء ، توجه اليه الاهانة تلو الاهانة فلا يستطع ان يرفع راسه امامها او يوجه اليها كلمة واحدة . واخذت هي تعدو في الحديقة .

كانت نسمات الصباح الندية تداعب وجهها فيغمرها شعور لذيذ غريب لا عهد لها به ، شعور الحرية والانطلاق . راحت تشعر بذلك سعيدة هانئة رغم ما بها من حزن والم ، كأن اعباء السنين الماضية المليئة بالكبت والحصر والذل والانكسار قد ازيحت فجأة عن كاهليها ، فشعرت بكيانها ، واهتدت الى نفسها الضائعة . انها الان شخص عظيم يستطيع ان يتصرف حسب مشيئته ، ويستطيع ان يقرر مصيره .

واخذت تعدو بخفة لا تعهدها بنفسها . وفتحت باب الحديقة والقت على الدارة الانيقة الضخمة القائمة في وسط الحديقة الواسعة نظرة كلها حقد واحتقار ، وراحت تعدو في الطريق .

كانت المسكينة تجهل ان باب الحديقة متصل بسلك كهربائي فيه جرس يرن في غرفة نوم السيد (غولميه) كلما فتح باب الحديقة امعانا في الحيطة والحذر. ويقفز الفرنسي وزوجه من سريرهما وبيد كل منهما بندقيته وينظران من النافذة. وتقول الزوجة « هذه هي زينب تحمل صرة كبيرة وتعدو في الطريق ، الى اين تذهب ولما تشرق الشمس ؟؟ »

ويقول الزوج : « ستلتحق اللعينة بالثوار حتما . لان اخاها قد مات البارحة في السجن . كانت الغبية تطلب مني دائما ان اتوسط لاخراج هذا الثائر المتمرد بحجة انه صغير السن . سأقتلها قبل ان تصل الي مأربها . » وتقول الزوجة : «دعها لي. دعني اجرب مقدرتي في الرماية» وقالت وهي تعد بندقيتها : « كانت الشقية خادمة ممتازة خدمتنا عشرين سنة . ولكني كنت اتوجس منها خيفة دائما . واعرف انها خبيثة تظهر غير ما تخفي . ان زوجها خير منها» واطلقت بندقيتها . فالتفتت زينب نحو الصوت ثم تابعت عدوها بسرعة اكثر — وقفز عبد الجبار من كوخه عندما سمع أزيز الرصاص واقترب من حاجز الحديقة واخذ ينظر بهلع الى الطريق فلاح له شبح زينب من بعيد ، فابتسم قليلا عندما اطمأن عليها . ولكن طلقة ثانية راح يرن أزيزها من فوق رأسه ، ورأى شبح زينب يترنح ذات اليمين وذات اليسار ثم يهوى الى الارض !!. ويهوي معه قلب عبد الجبار .. ويسمع ضحكة عالية اطلقتها حنجرة الرجل الذي كان يسميه بالطيب . سمعها وكأنها قهقهة قرد في غابة كثيفة موحشة . ويذهل عبد الجبار لحظة . ثم يعود الى كوخه صلبا قويا وقد صمم امرا فظيعا لا يرده عنه شيء.

وما هي الا لحظات حتى يخرج من الحديقة ويعدو في الطريق نحو زينب التي كانت تتخبط في بركة من دمائها!! حتى اذا كان على بضع خطوات منها سمع دويا هائلا . وفتحت زينب عينيها للمرة الاخيرة فرأت الدارة الانيقة تهوي بين السنة اللهب وعجيج الدخان والغبار ، ورأت عبد الجبار يلهث وقد ارتمى بقربها وهو يقول لها :

— لقد فعلتها يا زينب.. القيت قنديل الزيت وهو مشتعل من الكوة التي تطل على مخزن الذخائر . لن يستطعوا ان يتغلبوا علينا ، فموتي قريرة العين .

دمشق — **الفة عمر باشا الادلبي**